Al-Qasemi Journal of Islamic Studies, **vol. 1, no. 1 (2016), 71-84**

Abdallah Mukhlis: His Life and Role in Exposing Arab and Islamic Heritage in Palestine

Johnny mansour[1]

Abstract

This study deals with Abdallah Mukhlis role in discovery hidden aspects of Islamic heritage in Palestine, through some tours he made in different libraries private and local in the main cities of Palestine: Jerusalem, Nablus, Akka, Jaffa and others.

Distributing the Islamic heritage through articles and books has cleared the importance of identifying the heritage and enforced the relationship between the Palestinian people and their past.

On the other hand, the study interest is to discuss the research methods that Mukhlis adapted to find out about the heritage and distributing it. This is to note that we are talking about unacademic person, but a researcher who just had a great interest to initiate such a research.

Facing on his research method we clearly note his accurate research for each manuscript or any paper which has a connection with the history of Palestine or Arabic and Islamic heritage and even comparing them with other manuscripts.

His position as the director of the Islamic Waqf in Palestine is an advantage in opening the libraries doors to work.

Therfore, the importance of his study, for distributing the Islamic Heritage has different consequences for knowledge, distribution and the connection between the people and their history, through political changes which Palestine lived in the mandate time (1918-1948).

[1] Lecturer in the Department of History Studies at the Academic College in Beit Berl.

العلامة عبدالله مخلص:

ملامح من حياته ودوره في كشف التراث العربي والاسلامي في فلسطين

جوني منصور*

تعالج الدراسة دور عبدالله مخلص ومساهمته في الكشف عن جوانب خفية من التراث الإسلامي في فلسطين، من خلال جولات قام بها على المكتبات الخاصة والعامة في مدن فلسطين الرئيسية كالقدس ونابلس وعكا ويافا وغيرها.

عاش مخلص بين حقبتين: العثمانية والانتدابية، والأخيرة بكاملها. وكان من الدوافع المركزية لإبراز التراث الإسلامي والعربي أمام التحديات التاريخية والسياسية التي كانت تمر بها فلسطين.

إنّ نشر هذا التراث من خلال مقالات وكتب بيّن أهمية التعريف بالتراث وتعزيز العلاقة بين سكان فلسطين وماضيهم. ومن جهة أخرى، اهتمت الدراسة بالتحقق الدقيق في المنهجية البحثية التي تبناها مخلص للكشف عن هذا التراث ونشره. وجدير ذكره أننا نتحدث عن شخص لم يتكسب العلم الجامعي، إنما بغيرته واهتمامه بادر إلى هذا العمل، معتمدًا على ما حصله من معارف بنفسه. ونظرة على منهجية بحثه نلحظ اهتمامه بالتمحيص الدقيق عن كلّ مخطوطة أو وثيقة لها صلة بتاريخ فلسطين أو التراث العربي والإسلامي، ومقارنتها مع مخطوطات ووثائق مشابهة وذات صلة.

إن الوظيفة التي تولاها عبدالله مخلص، وهي مدير الأوقاف الإسلامية في فلسطين، كانت عامل مساعد في فتح أبواب المكتبات، المشار إليها أعلاه، أمامه للخوض في هذا العمل. أهمية قيامه بنشر التراث الإسلامي فيه دلالات قوية، تعريف بهذا التراث، ونشره، وتعزيز العلاقة بين أهل البلاد وتاريخهم وتراثهم وسط تحولات سياسية خطيرة كانت تعيشها فلسطين في فترة الانتداب البريطاني.

مقدمة

كانت مكتبة العلامة عبدالله مخلص من بين منهوبات الجيش الاسرائيلي في القدس في عام 1948. حيث تم إيداعها في أقبية المكتبة الوطنية الإسرائيلية وأقفل عليها لفترة طويلة من الزمن،[2] إلى أن تمّ الكشف عن مكنوناتها في السنوات الأخيرة،[3] مع الإشارة إلى ملاكي وأصحاب هذه المكتبات. ومنها

---

* محاضر في قسم دراسات التاريخ في الكلية الأكاديمية في بيت بيرل.

[2] كامل جميل العسلي. تراث فلسطين في كتابات عبدالله مخلص مع دراسة مفصلة عن حياته وشخصيته العلمية. منشورات صامد، عمان، 1986. ص 20.

[3] גיש עמית. "מצוה משונה: איסוף הספריות הפלסטיניות ממערב ירושלים במלחמת 1948 וגלגוליהן בבית הספרים הלאומי והאוניברסיטאי" תאוריה וביקורת 35, סתיו 2009. ע"ע 26-11. وهذا المقال هو فصل من رسالة

مكتبة خليل السكاكيني، ومحمد نمر الخطيب وغيرهما...[4] لكن، وبالرغم من فقدان مكتبة مخلص إلا أنّ ما نشره من مقالات وبحوث وكتب تسلط الأضواء على مناحي كثيرة عن الشخص وعمله ومساهماته في الحفاظ على التراث الإسلامي والعربي في فلسطين، ومناطق حولها.

سنولي في مقالنا هذا اهتمامًا بسيرة حياة مخلص وأعماله، وسيكون التركيز على ما نشره وتحليل لهذا الجانب من حيث أهميته التاريخية والعلمية، ومساهمته في تعزيز العلاقة بين أبناء الوطن وبين تراثهم، وضرورة السعي الحثيث نحو مزيد من كشف اللثام عن مساهمات أخرى في هذا المضمار.

1. ترجمة حياته:

ولد عبدالله مخلص في الثاني من محرم من سنة 1296هـ الموافق للسابع والعشرين من كانون الأول 1878م في مدينة عينتاب[5] التي كانت تابعة لولاية حلب، إلا أنها اصبحت فيما بعد ملحقة بتركيا.

عمل والده موظفًا في الجيش العثماني، وتنقل بين مدن الدولة العثمانية إلى أن توفي في جنين في 1923م. أما والدته فتوفت في عكا في 1931م. وخلال تنقل والده الكثير، استقر بالعائلة لفترة طويلة في مدينة حيفا. حيث تعلّم المترجم له في مكتب الرشدي المجاور للجامع الصغير الذي عمّره الشيخ ظاهر العمر الزيداني في 1762م، أي بعد تأسيسه لمدينة حيفا الجديدة. ثم تابع دراسته في جنين مع انتقال والده للعمل فيها ضمن وظائف الجيش العثماني. وأجاد اللغتين العربية والتركية، بالإضافة إلى اطّلاعه على مواضيع أخرى كالحساب والجغرافية والتاريخ.

أما في ميدان العمل فقد التحق في جهاز التوظيف في بلدية جنين كاتبًا لها، ثم موظفًا في فرع البنك الزراعي في نابلس ومسئولاً فيه عن الخزانة والمحاسبة الجارية.[6] ثم نُقل إلى صور فبيروت ثم حيفا،

الدكتوراة لكاتبه. ثم صدرت الرسالة بكتاب بالعبرية، وترجمه إلى العربية علاء حليحل. "بطاقة ملكية، تاريخ من النهب والصون والاستيلاء في المكتبة الوطنية الاسرائيلية. إصدار مدار - المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، رام الله، 2015.

[4] محمد كلاب. "أبرز المكتبات الفلسطينية المنهوبة وأعلامها" على موقع دنيا فلسطين كالتالي: alwatanvoice.com.

[5] عينتاب وأضاف الأتراك قبل اسمها غازي عنتاب. والحقت بتركيا بموجب اتفاق انقرة في 1920 بين الحكومتين التركية والفرنسية الانتدابية في سورية.

[6] خير الدين الزركلي. الأعلام؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. الجزء الرابع، دار العلم للملايين، بيروت. 1997. ص 134.

حيث أصلح فيها ما أفسده أحد الموظفين. ثم انتقل ليعمل في قسم المحاسبة في إدارة الخط الحجازي في حيفا، ولكن ساءت علاقته مع المدير الالماني "ديكمن" فقرر الاستقالة أو بالأحرى أقيل ليتفرغ للعمل في المحاسبة العامة للأوقاف الاسلامية في المجلس الاسلامي الشرعي الأعلى في القدس والذي تأسس في العام 1922م. لكن المجلس ألغى هذه الوظيفة بعد سنة، فقرر التفرغ لأعماله التجارية المستقلة. وبقي في حيفا[7] إلى عام 1938 حين استدعته الحكومة الانتدابية المركزية في القدس لتولي مديرية الاوقاف العامة في فلسطين. وبقي في وظيفته هذه إلى العام 1944.[8] بعد استقالته من وظيفته الأخيرة هذه تفرّغ للبحوث والكتابة[9] عن فلسطين وتراثها التاريخي والاسلامي، وإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات إلى أن أصيب بمرض البروستاتا وتوفى في نيسان 1947، قبل أن يشهد تدهور الأحوال العامة في فلسطين وصولاً إلى النكبة في 1948.[10] وكانت مكتبته الخاصة التي احتوت على كنوز كثيرة من الكتب والمخطوطات[11] قد نقلت إلى دير راهبات القلب الأقدس في القدس قرب المستشفى الافرنسي، إلا أنّ الجيش الاسرائيلي قصف الدير غير آبه بحرمته وقدسيته، فأنهارت أجزاء منه ودفنت المكتبة تحت الأنقاض. إلا أنه، وفق ما نعرفه من تحقيقات أجراها الدكتور غيش عاميت وسجلها في فيلم وثائقي بثته قناة الجزيرة، أن مكتبات خاصة تعود لفلسطينيين في القدس وخارجها قد تمّ جمعها وتصنيفها ووضع قوائم بها موجودة في أقبية المكتبة المشار إليها سابقًا، والتي كانت تابعة للجامعة العبرية بالقدس.

2. مكونات ثقافته:

لا ترتبط ثقافة عبدالله مخلص بتعيلمه في مدرسة أو جامعة. فهو قد درس في مدرسة رشدية، أي حكومية، في حيفا ولم يتابع دراسته في مستويات أعلى. لكن ثقافته التي اكتسبها بكده وجهده جاءت

[7] حول الدورين الاقتصادي والاجتماعي الذي لعبته حيفا نحيل القارئ إلى كتاب مي صيقلي. حيفا العربية 1918-1939 (التطور الاجتماعي والاقتصادي). مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1997.

[8] حول وظائفه نحيل القارئ إلى المقال القيم لمحمد حسن مكي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد 23(سنة 1948)، ص 460.

[9] يورد الزركلي قائمة بعدد كبير من مؤلفات مخلص. المصدر السابق، ص 135. وأيضا مقالة محمد حسن مكي السابق ذكرها، ص 459. ويورد العسلي نصوصا كاملة لمؤلفات مخلص في كتابه تراث فلسطين... السابق ذكره...

[10] Ilan Pappe. The Israel\Palesine Question: a Reader (Rewriting Histories). Routledge, 1999. P. 21.

[11] الموسوعة الفلسطينية (القسم العام)، المجلد 3، ص 180.

في أعقاب اهتماماته الشخصية بمواضيع تراثية وحضارية وتاريخية وأدبية ذات صلة قوية بتاريخ فلسطين والأمة الإسلامية.[12] لم ينتسب إلى جامعة في الشرق أو في الغرب، حتى أنه تمنّى الدراسة في استنبول التي كانت فيها جامعات وكليات عالية يقصدها أبناء الذوات في الأساس، لم يحالفه الحظ في تحقيق حلمه.

ومن جهة أُخرى، لم يكن الجو العام السائد في فلسطين حتى العام 1908 يتيح له ولغيره التفكير في أي مبادرة ثقافية تُعلي من شأن الثقافة الشخصية أو الثقافة العامة. حيث أنّ أنظمة وقوانين حكم الدولة العثمانية ونظامها حالت دون تطوير منظومات التربية والتعليم المدرسية والجامعية في مناطق بعيدة عن العاصمة استنبول. لكن التحوّل حصل بعد الانقلاب العثماني وإعادة العمل بالدستور وفتح باب الحريات، وإتاحة المجال للراغبين في إقامة وإنشاء مبادرة ثقافية وتربوية القيام بها. فتأسست الصحف والجرائد في فلسطين وجوارها. وساهمت هذه الخطوة في خلق حيزات ثقافية كان عبدالله مخلص مساهمًا فيها من خلال كتابته المتواصلة فيها.

من جهة ثانية، فإن ثقافته لم تنحصر في اتجاه واحد صممه لنفسه، بل إنه بادر إلى التعلم من مقابلات ولقاءات مع علماء دين متنورين في نابلس والقدس وبيروت. الاستماع إليهم وإلى مخزونهم الثقافي، وإن كان محصورًا في الأطر الدينية، إلا أنّه فتح أمامه أبوابًا أدبية وتراثية وتاريخية كثيرة. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ فلسطين بوجه عام كانت محط أنظار أصحاب جرائد كثيرة لإدراكهم أنّ فيها قرّاء كثر.[13] وهذا صحيح، حيث أنّ فلسطين حظيت بهذه المكانة من العرب، فوصلت إليها عدة صحف عربية من الشام ومن القاهرة. فاطّلع مخلص على ما فيها من مواد ومقالات وتقارير، ساهمت هذه في تطوير قدراته التفكيرية والكتابية لاحقًا.

وبعد أن نهل من بحر المعرفة والثقافة العامة ما أتيح له، وجّه عينه إلى التراث العربي والاسلامي من خلال مواضيع التاريخ والآثار والمخطوطات والكتب القديمة. وهو الذي لم يدرس التاريخ ولا الآثار في أُطر جامعية أو أكاديمية.

---

[12] James Grehan. Twilight of Saints: Everyday Religion in Ottoman Syria and Palestine. Oxford University Press, 2014. P. 73.

[13] Ami Ayalon. Reading Palestine: Printing and Literacy, 1900-1948. University of Texas Press, 2004. Pp. 43-78.

وهكذا، نراه يجول في مدن كثيرة بحثًا عن كتب ومخطوطات قديمة تساعده على دراسة أعمق للتراث الإسلامي. ففي مجال الكتب كان يتابع يوميًا أخبار نشر الكتب ويكتب تعريفًا بها ينشره في مجلة مجمع اللغة في دمشق، هذه المجلة التي تزخر بمقالاته وبحوثاته الهامة والرصينة.[14] واطّلع ايضًا على ما كان المستشرقون ينشرونه من دراسات وبحوث وتحقيقات لمخطوطات عربية وإسلامية. لم يكن رافضًا الاطلاع على ما يقوم به هؤلاء، بالرغم من تحفظاته الواضحة نوعًا ما مما كانوا ينشرونه. إلا أنّه احترم مساهماتهم العلمية، والتي لولا بعض منها لما تعرفنا على تراثنا الذي كان غاطًا في سُبات عميق منذ أجيال وأجيال. ونشر في مجلات وصحف فلسطين سواء في حيفا أو في القدس أو القاهرة.[15] ومن بين الجرائد اليومية التي نشر فيها:"اللواء" و"الدفاع"، وفي مجلات مثل:"النفائس العصرية"، و "مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق" و "الزهراء" لصاحبها محب الدين الخطيب في القاهرة و "الزهرة" لصاحبها جميل البحري في حيفا.[16] وضمّت مكتبته مئات العناوين التي تعكس ثقافته. ففيها كتب التاريخ، والآثار والأدب والتفاسير والتراجم وغيرها. من هنا ندرك مدى اهتمامه باقتناء أمهات الكتب العربية القديمة كمعجم البلدان لياقوت الحموي، والخطط للمقريزي، والنجوم الزاهرة لأبن تغرب بردي وغيرها...

بمعنى آخر، أن مكتبته الخاصة كان فيها ما يفيد التثقف العام، وما يفيد الثقافة الموجهة نحو مواضيع محددة وفقًا لاهتمام صاحبها. وهذا ما بيّناه اعلاه.

إنّ هذا الاهتمام الموجه نحو تثقيف الذات، دفع مخلص إلى وضع مجموعة من الدراسات التراثية عن عدد من مدائن ومواقع فلسطين كصفد وبيت لحم، والخليل وعكا وغيرها.

وكباحث رصين تراسل مع عدد من زملائه الباحثين في فلسطين وخارجها مناقشًا إياهم في قضايا معينة، أو مستفسرًا عن مسألة ما، ومن بين هؤلاء كان احمد زكي باشا الملقب بـ "شيخ العروبة"، والأب انستاس ماري الكرملي علاّمة اللغة البغدادي والشيخ سعيد الكرمي والعلامة أحمد تيمور باشا في مصر وغيرهم. فمن خلال الإطلالة على شبكة علاقات مراسلاته مع هؤلاء ندرك من هو الرجل، وما هي اهتماماته الثقافية. كما كانت له علاقات علمية مع باحثين عمالقة في ميزان ذاك

[14] العسلي. ص 30.

[15] Ami Ayalon. Ibid. p.54.

[16] يوسف أسعد داغر. مصادر الدراسة الأدبية. مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى . بيروت، 2000. ص 1064.

الزمن مثل مرجليوث في جامعة اوكسفورد بريطانيا، أو مع المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، وقد نشر فيه عدة مقالات، بالإضافة إلى ما نشره في مجلات علمية وعامة أخرى في فلسطين والعالم العربي، وخصوصًا في دمشق والقاهرة وبغداد...[17]

نعم... إننا أمام علامة متميز الفكر والمنهج العلمي، درس على نفسه، وهذا أفضل ما يمكن أن نلخص به خلفيته العلمية والثقافية.

3. منهجه البحثي:

تميز مخلص بمنهج بحثي واضح المعالم، حيث أنه كان يقوم بزيارة موقع البحث ليستقصي الحقائق الميدانية أولاً،[18] ثم يعود إلى المصادر المكتوبة ويقرأ عنه ويستخلص النتائج ويدونها ضمن مقالة علمية يبين فيها كلّ ما له صلة بالموقع الذي كان يقوم ببحثه. والأمثلة على ذلك كثيرة، سنشير إليها ضمن التطرق إلى بحوثه ومساهماته العلمية المتعلقة بالتراث الإسلامي في فلسطين وجوارها.

وعلينا الإشارة هنا إلى أنّ مخلص لم يكن مخترعًا لهذا المنهج، إذ أنّ البعثات الأثرية الاستكشافية الاوروبية والتبشيرية التي وصلت إلى فلسطين ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر كصندوق اكتشاف فلسطين قامت بتطبيق هذا المنهج، فانتشر أعضاؤها في مواقع عدة ونقبوا وبحثوا وسألوا السكان المحليين واطّلعوا على ما هو متوفر عن المواقع التي أخضعت للبحث، إلى أن يتمّ استيفاء المعلومات حينها يقومون بنشر موادهم عنها في مؤلفات ومقالات بلغات أوطانهم. واطّلع مخلص على هذا المنهج من خلال وجوده الفعلي في عدد ليس بقليل من عمليات التنقيب التي شهدها، ما زاد لديه دافع حب الاستطلاع للتعرف على آثار فلسطين. وكان لزامًا عليه أن يقوم بزيارات لعدد من المواقع المقدسة للمسلمين بعد توليه منصب مدير الاوقاف في القدس. فزار ضريح زكريا في قرية زكريا المهجرة، وزار الحرم الابراهيمي الشريف في خليل الرحمن. كما أنه أشرف بنفسه على إعمار عدد من المواقع الأثرية الدينية كقبر مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس الشهير...

---

[17] شارك في كثير من الميادين الفكرية ونشر مقالاتع في صحف كثيرة سواء في فلسطين او خارجها، كما انه انتسب عضوا في مجمع دمشق إلى جانب كبار الأدباء والكتاب امثال سعيد الكرمي، وخليل السكاكيني، وغيرهما... ياغي. المصدر السابق. ص 108.

[18] العسلي. مصدر سابق. ص 44.

هنا وفي هذه النقطة حصريًا، لا بدّ من الإشارة أنّه قد استفاد فعليًا من وجوده في مديرية الأوقاف الإسلامية في القدس ليطلع على مجموعة من المخطوطات والوثائق ذات الصلة بالأوقاف والمواقع الأثرية التراثية الإسلامية في فلسطين والجوار. وبحكم عمله في هذه المديرية مديرًا لها، أتيح له الاطّلاع على كتب نادرة في المكتبات العائلية في القدس وسواها من مدائن فلسطين. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى هذا الدمج بين العمل الوظيفي الهادف لتحصيل الرزق وبين الاستفادة من العمل لجني ثمار مهمة تخدم مشروعه البحثي.

4. مساهماته العلمية:

تمحورت في مجالات الترجمة وتحقيق المخطوطات، ووضع الابحاث التاريخية والتراثية، وكتابة تعليقات في موضوعات شتى، ورأي في كتاب نشر حديثًا سواء كان مؤلفًا بالعربية أو بغيرها من اللغات التي كانت له فرصة الاطلاع عليها.[19] ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّه كان يتابع عملية نشر تفاصيل صدور الكتب الجديدة في العالم العربي والغرب، وكان يطلب إرسال كتب يختارها بنفسه. ولا شكّ في أنّ مؤلفاته بين المترجم منها وبين الأصيل يميل إلى الدراسات العربية والاسلامية بكافة وجوهها التي تعرف عليها في ذاك الزمن.[20]

ففي مجال الترجمة نجده يخوض تجربة فريدة من نوعها، إذ ترجم كتابين لنامق كمال وهما: "فاتحة الفتوحات العثمانية"(1909)، و"سيرة الفاتح أو تاريخ السلطان محمد الفاتح"(1910). والكتابات صدرا بترجمتهما العربية في مدينة حيفا، وهذا أيضًا مؤشر إيجابي للنهوض الفكري في مدن فلسطين في فترة زمنية قلت فيها المطابع، أو لنقل قل فيها القرّاء.

وفي مجال تحقيق المخطوطات ذات الصلة بالتراث العربي الإسلامي فإنّه أولى اهتمامًا بالتعريف بالمخطوطة ووصفها الشكلي أي الظاهري وأهميتها العلمية وما تحويه من تفاصيل في مجالها، أي المواضيع التي تعالجها المخطوطة. ولم يكن اهتمامه بالمخطوطات ووصفها ونقل المعلومات الأساسية عنها لمجرد التباهي بمعرفته بها، إنما لعرضها على المهتمين ودفعهم وتحفيزهم للقيام بعملية تحقيقها ومعالجتها وفقًا للأسس والمعايير المعمول بها رسميًا في أوساط المختصين بهذا المجال. ومن جهة أخرى، لا بدّ من القول إنّ مخلص لم يكن مهتمًا بمجال محدد في معالجة المخطوطات، بل إنه

[19] يعقوب العودات. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. عمان، 1976. ص 574.

[20] راجع عن اهمية دوره في هذا المجال في دراسة العسلي المشار إليها آنفا.

اهتم بعلوم شتى كعلوم البحار واللغة والإدارة السياسية والتاريخ والجغرافية والفقه والثقافة العامة، وغيرها....

فعلى الصعيد الشخصي كان مالكًا لمعلومات معرفية واسعة ومتشعبة أهلته لأن يتوجه إلى دراسات أصلية قلت المواد المتعلقة بها. وعلى الصعيد العلمي أصرّ على معالجة أولية أساسية للمخطوطات لتكون قاعدة بيانات مستقبلية للراغبين من أوساط العلماء وذوي الاختصاص على تحقيقها كاملة. ولأنّه كان مولعًا بالتراث العربي والإسلامي فقد وضع مجموعة من الدراسات الصغيرة والقصيرة في مواضيع محددة أصلاً، ومنها الزينة والألعاب وأدوات الحرب عند العرب. وكلّها بدون أدنى شك ساهمت في إثراء ثقافته ومعرفته.[21]

أولى اهتمامًا كبيرًا لتراث فلسطين، فكان محببًا إليه لما فيه من محفزات لكشفه والبحث فيه بجدية تامّة، ليكون قاعدة معلومات رئيسة للباحثين ولأجيال الشباب المهتمين بتاريخ وطنهم. لهذا نراه يسرع إلى نشر مقالات كثيرة لها صلة بهذا التراث. فنشر أكثر من 45 مقالة في الآثار والتاريخ والوثائق المتعلقة بتراث فلسطين. ووضع مخطوطًا ضخمًا بعنوان "أعلام الاسلام في موطن الأنبياء فلسطين" لم ير النور، ضمّنه مع غيره من المقالات حول فلسطين بمعلومات جديدة للقارئ في ذلك الزمن، وخصوصًا عن مواقع دينية وأثرية في القدس والخليل وصفد وبيت لحم. وتنبّه مخلص إلى مخاطر ما يكتبه عدد من الباحثين الأجانب عن هذه الأماكن،[22] أو الطريقة التي ينقلون بواسطتها المعلومة، وأهل البلاد في حالة غياب فكري لقلة المعرفة ولعدم معرفة غير اللغة العربية. ومن جهة أخرى، لم تهتم حكومة الانتداب البريطانية برعاية الآثار الإسلامية المنتشرة في فلسطين، كما أنّ مؤسسات الوطن الدينية والوطنية لم ترعاها بما فيه الكفاية، بما يضمن بقائها وصيانتها من الأذى.[23]

---

[21] Ayalon. Ibid. p. 68

[22] ناقش في مقالات له عددًا من طروحات الباحثين العرب والمستشرقين فيما يخص بعض المواقع والأثريات المتعلقة بها. انظر ياغي، مصدر سابق، ص 138 وص 139.

[23] للتوسع حول إعادة اكتشاف فلسطين من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نحيل القارئ إلى البحث القيم Beshara B. Doumani. "Rediscovering Ottoman Palestine: writing Palestinians into History", in Journal of Palestine Studies, Vol. 21, No. 2(winter, 1992). P. 14. وأيضا ملاحظة رقم 36 في هامش المقال ذاته.

5. ولماذا تراث فلسطين؟

أدرك مخلص ما تتعرض له فلسطين من اعتداءات ومخططات السيطرة عليها من قبل المشروع الصهيوني، وكذلك يقينه التامّ بما يكيده الإنجليز للعرب، وميلهم لدعم المشروع المذكور سابقًا. ومن منطلق حبّه لوطنه العربي والإسلامي، وفلسطين هي قلب هذا الوطن، إطّلع، وبشكل شخصي، على عدد كبير من البحوث الأجنبية بخصوص فلسطين. هذا الاهتمام الواسع من قبل الغير أثار انتباهه إلى ضرورة توجيه الأنظار إلى تراث فلسطين بواسطة التعريف به، وكشفه محليًّا (أي فلسطينيًا)، وعربيًا وإسلاميًا.[24] فنراه يصف لنا المسجد الأقصى المبارك وما فيه من مواقع هامة، ثم مئذنة الجامع الأبيض في مدينة الرملة، وجبّ يوسف الصديق، وقبور العازر وراحيل ورابعة وكتابات ونقوش أثرية من الفترة العباسية والتي كانت مهددة بالاندثار لولا جهوده الحثيثة في التعريف بها. كما أتيحت له الفرصة لكشف عشرات من النقوش على الحجر والأخشاب والنحاس في مواقع مختلفة من فلسطين. وأحصى العسلي 68 نقشًا عرضها مخلص.[25]

6. بحوثه التاريخية:

أما بحوثه التاريخية فتطرقت إلى موضوعين رئيسيين، وهما:

أ. مواضيع لها صلة بأحداث تركت أثرها في التاريخ الإسلامي مباشرة، أو بتاريخ فلسطين خصوصًا. ويمكن الإشارة إلى بحوثه التالية:"العهدة المحمدية والعهدة العمرية"، وهي عبارة عن تحقيق لوثيقتين مهمتين في صياغة العلاقة بين الدولة الإسلامية من ناحية، وغير المسلمين من ناحية أخرى، فيما يتعلق الحقوق والواجبات. بحث آخر حول "فلسطين تحت حكم الفراعنة"، وآخر حول موسم النبي موسى ومساهمته (أي الموسم) في بلورة الهوية الدينية والوطنية الإسلامية والفلسطينية في ظل الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني الهادفين إلى اقتلاع الشعب الفلسطيني وتدمير هويته الجيوسياسية. إضافة إلى بحثه الذي يحمل العنوان "الشيخ المجاهد عز الدين القسّام وصحبه". هذا البحث الخاص الذي وضعه مخلص يحوي معلومات كثيرة عن رؤى هذا المجاهد وتوجهاته نحو فلسطين وقضيتها، لأنّه عرّفه شخصيًا واجتمع إليه عدّة مرّات في حيفا التي عاشا فيها في فترة زمنية متوازية.

[24] العودات. مصدر ذكر سابقا. ص 547.

[25] العسلي. م.س. ص 49 في الهامش.

مشروع مخلص متوالي، أي غير محدد في نقطته نهايته، حيث يقبل ويوالي التنقيب والبحث ليثبت تحقيقاته واستنتاجاته في وثائقه التاريخية. كما فعل في أمر تحقيق ضريح يوسف في قرية بلاطة القريبة من مدينة نابلس.[26] يمكن الإشارة هنا إلى مساهماته في كشف معلومات إضافية عن مؤسسات رسمية أديرت بها الدولة الإسلامية في القرون الوسطى، ولعبت دورًا مركزيًا في بناء الاقتصاد الإسلامي، مثل "الحسبة".[27]

ب. مواضيع تتعلق بمواقع في فلسطين، كعكا وبئر السبع وصفد وغيرها.

أما في مجال دراسة مخطوطات إسلامية أو عرض بعض منها للتعريف بها، فإنه كان من المبادرين إلى كشف اللثام عن نفائس المكتبة الخالدية في القدس، والتي تحتوي عددًا كبيرًا من المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة.[28] وكذلك الكشف عن وقف أبي مدين الجزائري في القدس وخارجها وأهمية هذا الوقف في دعم البقاء الفلسطيني والإسلامي في فلسطين من خلال ريعه، وغيرها من مخطوطات وكنوز في خزائن فلسطين.[29]

7. مميزات مؤلفاته وبحوثه:

بالاعتماد على المقاييس العلمية، في الزمن الذي عمل فيه عبدالله مخلص، فإنّه يعتبر وبحق علاّمة. السبب في ذلك سعة مداركه واطلاعه الواسع على مواضيع شتى تتمحور ضمن دائرة التراث الفلسطيني والإسلامي. كما ركز بحوثه ووجهها نحو مواضيع محددة اعتقد، وكان صادقًا في اعتقاده، أنها مستهدفة من قبل المشروع الصهيوني والانتداب البريطاني، فآلة التشويه والتزوير التاريخي ليست حديثة من عهدنا، بل هي قديمة جدًّا، ودورها فاعل في قلب الحقائق وتزييف التاريخ.

---

[26] عبد الرحمن ياغي. حياة الأدب الفلسطيني الحديث؛ من اول النهضة حتى النكبة. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، الطبعة الثانية، رام الله 2001. ص 93.

[27] Abdul Aziz Islahi. "Works on Market Supervision and Shar'iyah Governance(al-hisbah wa al-siyasa(al-shar'iyah) by the Sixteenth Century Scholars", in MPRA(Munich Personal RePE Archive). On www.mpra.ub.uni-muenchen.de.2006

[28] عرفان ابو حمد الهواري. أعلام من أرض السلام. جامعة حيفا، 1979. ص 170.

[29] يتطرق طريف الخالدي إلى الكتابة النصية للتاريخ في اوساط مؤرخين من فلسطين وخارجها في النصف الأول من القرن العشرين، في مقاله: Tarif Khalidi."Palestinian Historiography: 1900-1948", in Journal of Palestine Studies, Vol.10, No. 3(spring, 1981). Pp. 59-76.

وباعتقادي أنّه من هذا المنطلق أدرك أهمية التعريف بالتاريخ وخصوصًا التراث بكافة مركباته التي عرضناها وشرحناها سالفًا.

وإن اطلاعه الواسع، على ما كان متوفرًا ومتيسرًا في ذلك الزمن، وخصوصًا المخطوطات والوثائق وسجلات المحكمة الشرعية الإسلامية وملفات مديرية الأوقاف الإسلامية في القدس وخزائن المساجد القديمة في عكا ويافا وصفد والخليل وغيرها، والكتب التي تم نشرها في وقته أو قبله بقليل،[30] كلّها، منفردة ومجتمعة، ساعدته على جمع المواد العلمية اللازمة، ومن ثم تصنيفها وكتابة البحوث والمقالات حولها.[31] الميزة الخاصة في بحوثه، الإيجاز والولوج مباشرة إلى صلب الموضوع دون مقدمات مطوّلة ومسهبة، وهذا أمر نادر في عصره. ذاك العصر الذي تميز بالركون إلى الأسس التقليدية في التمهيد المطول لكلّ كتاب وبحث ومقالة. فنراه يبتعد عن الأساطير والخرافات والأقاويل غير المسنودة بدعائم علمية، ويميل بكلّ قوته الفكرية إلى الجانب العلمي في البحث الذي يعتمد على المصادر والمراجع الموثوق بها. وهو في هذا المنهج أو الأسلوب يعتبر ثوريًا ومجددًا متميزًا قلّ أمثاله بين البحاثة والدارسين للتراث والتاريخ. هؤلاء الذين يميلون إلى التوسع في الكتابة، وعدم ترك أي تفصيل أو معلومة إلا وأدرجوها في بحوثهم للإشارة إلى سعة اطلاعهم، وبالتالي يثقلون كاهل القارئ ورأسه. أما المترجم له العلامة عبدالله مخلص فعرف أنّ الطريق الأفضل إلى تعزيز المعلومة التراثية والتاريخية تكون عن طريق الإيجاز، والإيجاز فقط.

8. تأثير الحالة السياسية على مواقفه وإنتاجه الفكري:

لعبت السياسة دورًا مركزيًا في بلورة فكر مخلص، سواء كان ذلك في الفترة العثمانية أو الانتدابية. ففي الفترة العثمانية انتمى إلى الاتحاديين، أي إلى جمعية الاتحاد والترقي، فتولّى فرع هذه الجمعية في حيفا تحت مسمى "نادي الاتحاد والترقي". لكنّه، كشف خلال فترة وجيزة أنّ هذه الجماعة تدعم الصهيونية فقرر الانسحاب من النادي "لئلا يكتب صك إعدام أمته بيده" على حدّ قوله. لكن أحدى الشخصيات البارزة في هذه الجمعية التقى به خصيصًا وأقنعه بالعدول عن قراره، وبأنّ الاشاعات كثيرة ضد الجمعية، وفوّضه بكامل القرارات والصلاحيات بما يتعلق وفرع حيفا، لإدراكه مدى تأثير كلمة مخلص ونفوذها في مجتمع وبيئته وشعبه. يقول حول دوره في مواجهة الاتحاديين

[30] Islahi. Ibid. on website.

[31] ياغي. مصدر سابق. ص 589.

بما يتعلق وبيع الاراضي للمؤسسات والمنظمات الصهيونية:" كنت أقف في وجه معاملات البيع والشراء للصهيونيين وأؤجلها السنين الطويلة والعديدة". لكن التغيير الذي جرى في موقفه ودوره هو دخول الدولة العثمانية الحرب الكونية الأولى إلى جانب المانيا، ومن ثم لجوئها إلى تبني سياسات القمع والقهر ضد العرب، وملاحقة أصحاب القلم والفكر وتعليقهم على أعواد المشانق في بيروت ودمشق، وأدرك أنه حين يتكلم السيف يسكت القلم. فقرر الانسحاب من النادي رسميًا، والتخلص من هذه الورثة السلبية تجاه أمته العربية.[32]

أما في فترة الانتداب البريطاني فكان للوضع السياسي الحاصل أثره الكبير على مواقفه السياسية وبالتالي على دفعه نحو المزيد من البحوث في مجال التراث، لأنه آمن أنّه بالتراث يمكن الحفاظ على موروث الأمة ومنع اندثاره. وبناء عليه سعى إلى التعمق في فهم العروبة ومفهوم القومية العربية وسعي الأمة العربية إلى النضال من أجل نيل حريتها والتمتع بالاستقلال الذي لم يتحقق إلا جزئيا.[33] اهتم بالكشف عن تاريخ وتراث معالم عمرانية اسلامية مهمة في تاريخ فلسطين والمنطقة المحيطة، في ظل الاحتلال البريطاني لفلسطين وفرض نظام الانتداب الذي يخدم المشروع الصهيوني ويحققه، وبالتالي فضح زيف الكثير من المعلومات التي تناقلها المؤرخون والأثريون حولها، لما لهؤلاء من تأثير في صنع قرارات في المحافل الاستعمارية الأوروبية.[34] أشد ما آلمه، معاملات بيوع الأراضي وتسريبها إلى المشروع الصهيوني، خصوصًا في مواقع ذات صلة بالتاريخ الإسلامي، فعمل على البحث المعمّق عن الوثائق التي تبيّن حقوق المسلمين والعرب في هذه المواقع. وهو بهذا يكون قد نبّه الفلسطينيين على خطورة ما يجري في فلسطين، وليس هذا فقط، بل قرع ناقوس الخطر في آذان المسلمين إلى ما يجري في فلسطين من تغييرات عمرانية ودموغرافية سيكون لها كبير الأثر على مستقبل الوجود

[32] Sami M. Moubayed. Steel and Silk: Men and Woman Who Shaped Syria 1900-2000. Seatle, Wash: Cune, 2005. P. 489.

[33] Jihan Steir-Khayat. "Historiographie Palestinienne: La Construction d'une Identite Nationale", in Annales, Histoire, sciences socials, 2005 \1, (60 annee). Pp. 35-52.

[34] Moubayad. Ibid. p. 123.

الإسلامي في فسلطين.[35] وتنبّه مخلص إلى أنّ الاستعمار طبقي النزعة وليس فيه عنصرية، ولا أي مؤثر آخ. وهو بهذا يميل إلى القول بأنّ الاستعمار همّه المكسب المادي.[36]

لم يقتصر عمله على التنبيه بقدر ما اهتم بالوحدة الوطنية الفلسطينية بين مسلمي ومسيحيي هذه الديار. فكتب دراسة موجزة، ولكنها ذات أهمية كبيرة، في كيفية التقريب بين أبناء الشعب الواحد على مختلف انتماءاته الدينية والمذهبية من خلال الحوار. لهذا يمكنني اعتباره من رواد الحوار الإسلامي – المسيحي المؤسس على فكر ونصوص وطروحات دراسية، بعيدًا كلّ البعد عن الشعارات الفارغة التي تستهلك آنيا ومحليا دون أن يكون لها أثر فاعل.[37]

إنّ المسارات التي سار فيها مخلص في هذه الفترة، أعني فترة الانتداب، كانت بالغة الأهمية من حيث إدراكه الكبير لما يجري في فلسطين، وإصراره للتصدي لكلّ المزاودات والمحاولات الساعية إلى تدمير وحدة أبناء الشعب الواحد، وإلى تجريد الفلسطينيين من وطنهم بما فيه من منازلهم وأراضيهم ومقدساتهم المسيحية والإسلامية. همّه الكبير هو في صيانة الوحدة الوطنية والحفاظ على التراث الإسلامي في فلسطين كجزء من الموروث التاريخي المتواصل لفلسطين والمنطقة.

هذه الرؤية الشمولية التي ميّزت نشاطات ومؤلفات مخلص تؤكد حرص هذا الرجل على وطنه وما يحتويه من تاريخ وحضارة وثقافة مادية وانسانية.

إجمال:

رافقنا سيرة حياة وأعمال علم من أعلام الفكر العربي والإسلامي والفلسطيني في فترتين: العثمانية والانتدابية. وأطّلعنا على منهجه العلمي في البحوث والدراسات التاريخية والأثرية، وأيضا على دوره في إثراء المشهد الفكري والثقافي والتراثي في فلسطين والجوار. حصل كلّ هذا مع هذا العَلَم دون أن يتلقّى أي ثقافة أكاديمية أو حتى ثانوية، فقد تتلمذ على نفسه وكسب خبرة وراكمها لتزوده في كتابة تلك الأبحاث والدراسات.

[35] Ilan Pappe. Ibid. p. 17.

[36] ياغي. المصدر السابق. ص 399.

[37] يشير عبد الرحمن ياغي إلى مشاركة مخلص في 1922 في تأسيس جمعية النهضة الاقتصادية العربية وأيضا حلقة الأدب في حيفا والتي لعبت دورا مركزيا في توسيع دوائر التثقيف والحفاظ على التراث. المصدر السابق، ص 96.